العشق فى عصرنا (١)

نظرة بسيكولوجية للروائى : ليوبولد سترن

موضوع العشق فى تآليف العرب لايخرج عن دائرة الأقاصيص والنوادر. أما التحليل العلمى للعشق فلاوجود له فى تلك التآليف. غير أن العرب حين اطلعوا على حضارات الأمم القديمة التى حكموها أرسلوا فى أشعارهم نظرات فى العشق لاتقل فى جمالها وصدقها عما قاله الأغريق واللاتين. ولعل العرب أول من جعل العشق موضوعا لتآليف خاصة به. ولدينا من هذا النوع كتاب « مصارع العشاق » وكله أقاصيص بينها ما هو مخترع ومنها هو صحيح. وخير منه كتاب تزيين الأسواق فى شرح أشواق العشاق. ومن الممكن أن ترتفع قيمة هذين الكتابين متى طبقت على أقاصيصهما قواعد علم النفس

وللأوربيين تآليف جليلة فى شرح أحوال العشق من الوجهة العلمية نذكر من بينهما كتاب «هنرى بيل» المعنون باسم «العشق» وكتاب المفكر المعروف « إيتيان راى » وثم كتاب آخر للمؤرخ ميشليه. هذا إلى نظرات الروائيين فى هذا الموضوع وقد تناولوه بحثاً ودرساً

وبين أيدينا الآن كتاب صدر فى باريس أخيراً للكاتب الروائى ليوبولد سترن شرح فيه العشق العصرى وأفرغ نظراته الدقيقة وملاحظاته فى قالب القصة الحديثة. وقد تولى الروائى الفرنسى المعروف « مارسيل بريفو » وضع مقدمة للقصة إلى مقدمة أخرى كتبها « جيرالدى »

استظرف « بريفو » القصة وقال ان مؤلفها أعاد الشباب إلى موضوع الحب، ذلك الموضوع القديم بنظره الحاد العصرى إلى أبعد حدود العصرية، وأنه بسط ملاحظاته فى الحب والنساء، والعلاقات بين الجنسين فى قالب النوادر والأمثلة على طريقة

(1) Psychologie de l' amour contemporain par Léopold Stern.

« ستندال » و« بلزاك » ولكن فى جلاء ودقة وذكاء . وانه فيلسوف فى العشق بوجه عام والعشق العصرى خاصة. فلسفة ممزوجة بالسخر

لاحظ « سترن » حالة الاستسلام الفجائي فى المرأة وقال أنها لاتدل على شىء يضاد طهارة الروح النسوى وان الوسيلة المؤكدة التى تقى المرأة حالة الاستسلام هى أن تجنب التجربة التى لا يستطيع التغلب عليها إلا القليل من إنسانها. وأشار إلى خطر زير النساء أو من يطلق عليه الانكليز اسم flirt ووصفه بأنه الفصل الأول من ماساة صغيرة — أو مهزلة صغيرة — تتم فى الغالب بما يناقض الزواج

ورأى « جيرالدى » أن العشق قابل لأن يتطور مع الزمن وأن له فى كل عصر « مودة » مثل زينة المرأة وأنه يتأثر بالمسافة . فقد لا يكون فى باريس كما هو فى بوخارست . وقال إن العشق فى احتياج إلى آداب خاصة . وان فتيان اليوم وفتياته يبغون جعل الحب وقفاً على حركة. ويحاولون تجريده من كل التعقيدات العاطفية وقد أعطوه مكانا بين ألعابهم الرياضية وضروب لهوهم، ولا يطلبون الا أن يتبادلوا مع المرأة لذة معجلة مجردة من الكلام لاتصلح أن تكون موضعا للأدب

أما قصة « سترن » فلا نريد أن نطيل على القارىء ببسط تفاصيلها. انما نكتفى بنقل شىء من ملاحظاته وآرائه فى العشق العصرى

يقول « ليوبولد سترن » : انقضى زمان إيلوئيز وابيلار دوس و « مانون » و« روميو » و « جوليت » كل ذلك قد طواه التاريخ فى رمس إلى الأبد . لقد أصبح العشق فى ايامنا مجرد حركة وصوت إن أبناء هذا الزمان يتحدثون عن العشق بعبارات مقنعة وبحركات يتجلى فيها أرق العواطف غير أنها مظاهر مجردة ليس للقلب ولا للروح أثر فيها

لم تبق ثمة مسرة فى العشق على طريقة أجدادنا فى هذا العصر الذى اجتمعت فيه كل ضروب الانحطاط . واستحوذت فيه العجلة على كل شىء . عجلة البخار والكهرباء واعترى التبدل الأحوال والناس. حتى ساعات العشق قد تغيرت . صارت فيما بين الخامسة والسابعة .

« انشغل الرجال فى أيامنا بشئون أخرى أهم فى نظرهم من العشق . ولا يكاد يتوفر لأحدهم فى آخر النهار إلا ساعة يخصصها لعشقه فيبدأه وينتهى منه بسرعه تذهل. ولم

المرأة بدأ من التوفيق بين زينتها وهذه السرعة المدهشة . فلم تعد تستعمل الاحذية ذات الأزرار ولا تطيل شعرها حتى لا يحتاج إلى أمشاط ودبابيس . وأهملت المشد وأعرضت عن الأثواب التى لا يسهل ارتداؤها .

. بطل العشق العصرى أن يكون عشقاً . وما زال أبناء العصر يستعملون مع ذلك تعابير أجدادهم وحركاتهم وصيغهم فى العشق ولكن دون أن تكون لها شعلة الروح وحرارة العاطفة الحقيقية .

. أى إنسان تبلغ به السذاجة فى أيامنا أن يصدق أن السيارة التى تظل مدام فى .. إلى عشيقها تحمل معها أدنى عاطفة من عواطف الحب الحقيقى ؟ انما تحمل السيارة ضروباً من الفنج والتظرف والميل إلى اللهو . لقد مضى الزمان الذى كان القلب ينبوعا يستقى منه الحب . صار الرجل ينتظر التى يحبها فى تثاؤب وفى ضجر .

ولما أصبحت الحرية من بعد الحرب مبدأ الجميع انتهزت المرأة الفرصة وخلعت عنها نير الرجل . وابيحت المساواة الجنسية . كل ما هو مباح الرجل لا ينبغى أن يكون ممنوعا عن المرأة . ولم تعد سمعة المرأة وديعة تحت طيات ثوبها يرتبط بصيانتها فخر الرجل . وباسم الحرية ارتكبت المرأة أعظم الأخطاء وقد رسبت الأرواح فى ميدان الكفاح العنيف بين الجنسين حيث تتعارض المصالح التى يدافع عنها كل منهما ونفخت الحرية فى صورها على الانسانية فسحقت العشق وأخمدت شعلته المقدسة .

. اعتنقت المرأة أساليب الرجل لكى تبرهن على أنها خرجت فائزة من كفاحه وأنها صارت مساوية له . صارت تدخن وتقص شعرها وتحب على طريقته . وتميزت مظاهر وجودها « بكلمة عصرى » . وقد أصبح لدينا اليوم : التربية العصرية والمرأة العصرية والبيت العصرى . واستعملت هذه الكلمة لتبرير مخازى المجتمع .

. يقول الزوج اليوم بزهو « إن زوجى امرأة عصرية » وتقول الأم « إنى أربى ابنتى تربية عصرية » . فسقطت كل الحجب . وباسم العصرية تقرأ الفتيات والفتيان ويشاهدن كل شىء . حتى الصور المجردة صارت باسم العصرية صورا فنية .

. تجلس الزوج إلى جانب زوجها والأخت إلى جانب أخيها فى محال « الميوزيك هول » حيث يرون النساء المجردات بلا حياء

لم يعد ثمة ما يسيء من ظهور المرأة مجردة أمام آلاف الرجال .

« انما ينقسم الحب العصرى إلى ثلاث حقب كل منها لا يتجاوز الثمانية أيام : الارتباط بعلاقة فى ثمانية أيام، وتبادل العشق فى ثمانية أيام، وتناسى كل ذلك فى ثمانية أيام - ويحيط بالعشق فى عصرنا اطار جميل يزينه هو الكذب . فالمرأة العصرية التى تعيش بالعشق انما تعيش بالكذب . والكذب فى فطرة المرأة ، وهو أبدا يلقى قبولا حسناً من قلبها . والحب العصرى إن لم يكن كذباً فهو على الأقل يحيى به

ولو أننا نظرنا إلى قلب المرأة فى معوجة زجاجية من ذلك النوع الذى يستعمل فى معامل الكيميا تجلى لنا العشق فى ذلك القلب مستحضراً من المواد التالية

١ صداقة + رغبة = عشق

٢ صداقة + هوى = عشق

٣ رغبة + هوى = عشق

٤ هوى حار إلى درجة المائة = عشق فى الغالب

ومن الممكن أن تخلو الثلاث مواد الأولى من العناصر الجوهرية فتكون أقل صفاء وغالباً تتوهم المرأة من العشق الذى ينشأ من مجرد بدوة أو هوى انه عشق حار صادق وما زال الحب يتولد فى قلب بألف أسلوب ومن خليط عجيب لا يكاد يتصوره العقل وربما بدا رغم ذلك صادقا

أما الوقاية من العشق فتنحصر فى عدم التفكير فيه والبحث عنه . وأما العلاج فينحصر فى انتظار نهايته والعشق داء ذوى الفراغ . أما أولئك الذين يشغلهم العيش من الصبح إلى المساء فلم يخلقوا لاضطرابات العشق